الطقوس والطوائف

في

الكنائس الشرقية

للابوين يوسف موغبان وفردينان توتل اليسوعيين

٢

الطقوس والطوائف

في كنيسة الله طقوس عديدة شرقاً وغرباً ، وهي ، على تنوّع رتبها وانظمتها متفقة اجمالاً على مبدأ وحدة الولاية الكنائسية في بقعة ارض واحدة. وهذا المبدأ عريق القدم في تاريخ الدين المسيحي يرقى عهده الى ايام الرسل ، ويقول بوجوب وجود اسقف واحد في اسقفية او ابرشية واحدة ، ضمن حدود مقاطعة ارضية واحدة . وقد حافظ المسيحيون في العصور القديمة اشدّ المحافظة على ذلك المبدأ حتى القرون الوسطى. وكانت وحدة الولاية تضمن وحدة الطقس.

واننا اذا القينا نظرةً ، ولو سطحية ، على احوال الطقوس في بلادنا الشرقية نرى انها قطعت برناً شاسعاً بين حالتها كما كانت عليه في العصور الخوالي وحالتها اليوم ، وقد تفرّعت وتطورت ونشأت منها كنائس مستقلة وطوائف وملل . فكثير منها لها نظام اكليروس قد يكون كاملاً في الغالب . ومنها التي لها بطاركتها واساقفتها وكهنتها كالطقس او الطائفة الملكية والمارونية والارمنية والكلدانية والسريانية. ومنها التي ليس لها بطاركة ولكن اساقفة وكهنة فقط كالكنيسة البيزنطية او اليونانية الكاثوليكية والكنيسة الروثانية والكنيسة الرومينية وغيرها . ومنها التي ليس لها بعد اساقفة ، ولكن كهنتها ومؤمنوها يخضعون لاسقف من غير طائفة كالكنيسة الكرجية .

وليس لهذه الكنائس المتمتعة كل منها بولايتها الخاصة بقعة من البلاد محددة مختصة بها دون غيرها من الكنائس . بل هناك كنائس تنفذ حقوق ولاياتها في بقعة ارض مشتركة بينها وبين غيرها ، ونفوذها انما هو في الاشخاص

المنتمين اليها لا سواهم.

كيف تمّ ذلك التمييز، وكيف تثبتت ولايات عديدة في ارض واحدة؟ قال حضرة الاب كيرلس شارون في كتابه تاريخ البطاركة الملكيين(٣: ٤٢٤): «ان مسألة الولايات هي من اشكل المشاكل المتناص حلّها على دارسي مؤسسات الشرق الكنائسي. فان مدينة واحدة تعدّ في حين من الاحيان سبعة او ثمانية اساقفة رؤساء جميات دينية وكلهم كاثوليكيون، غدا الاساقفة المنفصلين المنتمين الى الارثوذكسية، او المونوفيسية الخ ... ان اشتباكاً كهذا لم يكن منذ البدء».

مضى الاب شارون ينقّب على الحوادث التي ادّت بالكنيسة الى الحالة الحاضرة ويحلّل اسبابها وقد افادتنا شروحه كثيراً.

ان فكرة الوحدة الاسقفية في ابرشية واحدة ضمن بقعة واحدة هي صوابية وموافقة كل الموافقة تقاليد الكنيسة. لكنها، على العهد الصليبي، صارت سبباً لمناقشات ومنازعات وقعت في مصافّ الاكليروس وهو يتباعد يوماً فيوماً عن روح الوحدة الكنائسية.

كان للشرق البطريرك الانطاكي يوحنا الخامس؛ وكان للصليبيين اساقفتهم، يقيمونهم اكليرساً لاتينياً، اينما حلّوا، ليستطيعوا ان يحكموا البلاد في الروحيات، كما كانوا يقيمون موظفين في الاقطاعات ليحكموا البلاد في الزمنيات، وهم اصحاب الفضل على الاراضي المقدسة ولولاهم لأُبيد مسيحيو الشرق عن بكرة ابيهم. فاصبح الاكليرس الشرقي كالمساعد للاكليروس اللاتيني، ذلك ما ادّى الى احتكاكات وتوترات بين الفريقين. ونشأت فكرة حقوق الاساقفة اللاتين على الكنيسة اليونانية، وادّى الامر الى ازدواج السلطة الكنائسية حيث وُجد اسقفان احدهما يوناني والثاني لاتيني. على ان ذلك الازدواج لم يكن الا حادثاً سيّارًا، ولم يكن قاعدةً لحق شرعي قانوني؛ وكلام البابا انشنس الثالث، سنة ١٢٣٨، في شأن السلطة المزدوجة معلوم من العموم قال: «يجب ان لا يكون رأسان لبطريركية واحدة.»[1]

---

١) راجع تاريخ سورية المخطوط، للمرحوم الاب بوليه اليسوعي ٢: ص ١٢١ في خزانة المكتبة الشرقية.

ولكن في السنة ١٢٥٢ الجأت الظروف الكردينال اود دي شاتيليون ، المندوب البابوي ، الى اقامة متروبوليت يوناني في قبرس على امل حلّ المشاكل الواقعة بين الاساقفة اللاتين والاساقفة اليونان في تلك الجزيرة ، فظهرت فيها الولايتان في الامر الواقع . وفي السنة ١٢٥٠ ارسل البابا انشنسيوس الرابع رسالة وافق فيها على اقامة الولايتين في قبرس ، فأقرّ مبدئياً حقوق وجودهما . ورسالته تلك لم تزل الى يومنا اساس التشريع الموضوع لتدبير شؤون الكاثوليك المنتمين الى الطقس البيزنطي ، القاطنين البلاد اللاتينية .

ولم يأتِ ازدواج السلطة بادئ ذي بدء بالنتيجة المنشودة لان الآراء كانت متباعدة والقلوب متنافرة ، فما كانوا ينتهون من حلّ مشكل الّا وقعوا في غيره . ورُفعت الى البابا اسكندر الرابع دعاوٍ لم تترك مجالًا لابقاء الولايتين ، فالغيت احداهما . ولم يكن الصليبيّون طرًا منقادين بنيّات صالحة في جميع اعمالهم ، وكان بصحبتهم جماعة من شذاذ القوم غير محنكين في السياسة والتدبير . فكرههم اليونان ، وقاوموهم . وفي السنة ١٥٧١ فتح الاتراك جزيرة قبرس ، ففرح القبرسيون لقدومهم ساعةً ، لكنهم عادوا يحرقون الارم دهرًا على تفريطهم بمقاومة اللاتين ومعاندتهم اياهم ، واللاتين مسيحيون ، ونيرهم اخفّ ثقلًا من نير المسلمين .

وتطوّرت الافكار ، وتغيرت الاحوال ، ورأوا في الغرب ان مبدأ الوحدة الاسقفية والولاية في بقعة واحدة لامر تستحيل المحافظة عليه بين قوم يتناظرون شزرًا . فتعدّدت الولايات والبطريركيات مع انفصال الكنائس عن الايمان الكاثوليكي وارتدادها الى وحدته . ومع هذا التطوّر تعددت ولايات الكرسي الانطاكي .

ومن الازدواج الى تعدد الولايات المسافة قريبة ، فانفتح الباب لاقامة اكثر من اسقف واحد على بقعة واحدة . ومن ثمّ ساد ذلك المبدأ الجديد على تكوين الكنائس الشرقية الكاثوليكية ، وانتج الابرشيات العديدة في البقعة الواحدة كما نرى ذلك اليوم في كثير من مدن الشرق . اما اصول المبدأ في الولاية المزدوجة فهذه هي :

لكل اسقف ولاية ارضية وقومية : ارضية بكونها ممتدة الى حدود لا

تتجاوزها ، وقومية بكون الاسقف لا يتصرف بها قانونياً الا على الاشخاص المنتمين لقومه . ولكل ولاية حدودها الجغرافية الخاصة بها دون غيرها . والمثال في ذلك ابرشية بيروت فان حدودها للمتروبوليت الملكي غير حدودها للمطران الماروني .

وليس دخول مبدأ الولاية المزدوجة مما يناقض قوانين المجامع كالنيقاوي الاول والخلقدوني واللاتراني التي حرمت اقامة اسقفين على مدينة واحدة لان ذلك التحريم هو من الحق الوضعي ، فكان يوسع البابا ان يفسح في امره ويقيم ولايتين كنائسيتين في اقليم واحد .

٣

من الطقس الى الطائفة الى القومية

دخل مبدأ الولاية المزدوجة فنشأت منه الكنائس وتعددت . ولما فتح العرب البلاد المصرية والسورية ، ومن بعدهم الاتراك بلاد الاناضول وبيزنطية ، اقروا على رعاياهم الذميين رؤساءهم الدينيين ، وخولوهم بعض الحقوق الادارية المستقلة في شؤونهم الشخصية ديناً ودنياً . وكان في السابق التشريع اليوستينياني قد ضمن لاساقفة المملكة البيزنطية بعض الحقوق الزمنية المدنية التي من دأبها صيانة الحرية الدينية ، فلم يحدث الفاتحون المسلمون جديداً في تأييد تلك الشرائع . ولكن لما وافق ظهورهم ظهور تعدد الطقوس او الطوائف والولايات الكنائسية في المملكة العثمانية خولوا بطاركة تلك الطوائف حقوقاً وامتيازات جعلتهم اشبه بالزعماء لقومية مستقلة ، فكانت وما زالت التشريعات العثمانية اساساً لما يدعونه الطائفية القومية ، في بلادنا . وقد يمتزج تاريخ الطوائف في القرون الاخيرة بتاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها مع الافرنج ومنحها عند طلب هؤلاء والحاحهم الفرمانات السلطانية المثبتة حقوق ذلك البطريرك او غيره ، تارة على هذه الطائفة وطوراً على غيرها ، وفي الغالب كان تحرير البطاركة والطوائف نتيجة جهود السفارات واخصها السفارة الافرنسية وسعيها .